فإن قلت : إذا لم يهتدوا إلى الاسترشاد بيوسف في أمور دينهم وألهاهم الاعتناء بتدبير الدنيا عن تدبير الدين فلماذا لم يدعهم يوسف إلى الاعتقاد بالحق واقتصر على أن سأل من الملك ( اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ) .

قلت A E : لأن ا لم يأمره بالدعوة آنفا علمت كما لحكمة ذلك منه سئل إذا إلا للإرشاد فأقامه الله مقام المفتي والمرشد لمن استرشد لا مقام المحتسب المغير للمنكر و ( ا أعلم حيث يجعل رسالاته ) فلما أقامه ا كذلك وعلم يوسف من قول الملك ( إنك اليوم لدينا مكين أمين ) أن الملك لا يريد إلا تدبير مملكته وأمواله لم يسأله أكثر مما يفي له بذلك . وأما وجوب طلبهم المعرفة والاسترشاد منه فذلك حق عليهم فمعنى ( فما زلتم في شك مما جاءكم به ) الإنحاء على أسلافهم في قلة الاهتمام بالبحث عن الكمال الأعلى وهو الكمال النفساني باتباع الدين القويم أي فما زال أسلافكم يشعرون بأن يوسف على أمر عظيم من الهدى غير مألوف لهم ويهرعون إليه في مهماتهم ثم لا تعزم نفوسهم على أن يطلبوا منه الإرشاد في أمور الدين . فهم من أمره في حالة شك أي كان حاصل ما بلغوا إليه في شأنه أنهم في شك مما يكشف لهم عن واجبهم نحوه فانقضت مدة حياة يوسف بينهم وهم في شك من الأمر .

فالملام متوجه عليهم لتقصيرهم في طلب ما ينجيهم بعد الموت قال تعالى ( من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ) الآيتين .

و ( حتى ) للغاية وغايتها هو مضمون الجملة التي بعدها وهي جملة ( إذا هلك ) ( وإذا ) هنا اسم لزمان المضي مجرورة ب ( حتى ) وليست بظرف أي حتى زمن هلاك يوسف قلتم : لن يبعث ا بعده رسولا أي قال أسلافكم في وقت وفاة يوسف : لا يبعث ا في المستقبل أبدا رسولا بعد يوسف يعنون : أنا كنا مترددين في الإيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد فإنه لا يجئ من يدعي الرسالة عن ا من بعده وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم بعد الموت تندما على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه .

وفيه ضرب من المبالغة في الكمال في عصره كما يقال : خاتمة المحققين وبقية الصالحين ومن لا يأتي الزمان بمثله وحاصله أنهم كانوا في شك من بعثه رسول واحد وأنهم أيقنوا أن يدعي الرسالة بعده كاذب فلذلك كذبوا موسى .

ومقالتهم هذه لا تقتضي أنهم كانوا يؤمنون بأنه رسول ضرورة أنهم كانوا في شك من ذلك وإنما أرادوا بها قطع هذا الاحتمال في المستقبل وكشف الشك عن نفوسهم وظاهر هذه الآية أن

يوسف كان رسولا لظاهر قوله ( قلتم لن يبعث ا من بعده رسولا ) أن رسولا حال من ضمير " من بعده " . والوجه أن يكون قوله ( رسولا ) مفعول ( يبعث ) وأنه لا يقتضي وصف يوسف به فإنه لم يرد في الأخبار عده في الرسل ولا أنه دعا إلى دين في مصر وكيف وا يقول ( ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء ا ) ولا شك في أنه نبي إذا وجد مساغا للإرشاد أظهر كقوله ( يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم ا الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل ا بها من سلطان ) وقوله ( إني تركت ملة قوم لا يؤمنون با وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك با من شيء ) .

وعدي فعل ( جاءكم ) إلى ضمير المخاطبين . وأسند ( فما زلتم ) و ( قلتم ) إلى ضميرهم أيضا وهو ما كانوا موجودين حينئذ قصدا لحمل تبعة أسلافهم عليهم وتسجيلا عليهم بأن التكذيب للناصحين واضطراب عقولهم في الانتفاع بدلائل الصدق قد ورثوه عن أسلافهم في جبلتهم وتقرر في نفوسهم فانتقاله إليهم جيلا بعد جيل كما تقدم في خطاب بني إسرائيل في سورة البقرة ( وإذ نجيناكم من آل فرعون ) ونحوه .

( كذلك يضل ا من هو مسرف مرتاب [ 34 ] الذين يجادلون في آيات ا بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند ا وعند الذين آمنوا كذلك يطبع ا على كل قلب متكبر جبار [ 35 ] )